الوَادِي الكَبِير

عَبقُ الفِردُوس فِي الـوَادِي الكَبِير وَعَبِيرُ العُرْب فِي المَجْـدِ الأَسِيرْ
جَـــدّدَا لِي ذِكْـــرَيَـــاتٍ لَمْ يَـــزَلْ
جُـــرُحُهَـــا يَسْكُـنُ فِي قَلْبِي الكَسِيـــر
ذَكّـــرَتْنِي أُمَّـــةً شَـــرْقِيَّـــةً
هَبطَت فِي الغَـــرْبِ بِـــالْخَيْـــرِ الكَثِيـــر
نَـــوَّرُوا بِـــالعِلَمِ أَرْضـــاً لَـمْ تَكُن
لِتَـــرَى – لَـــوْلاَهُمُـو – وَمْضَـــةَ نُـــور
وَبَنَـــــوا أَمْجَـــــادَهـم مِن شُهُـبٍ
مُشْـــرِقَـــاتٍ فَـازْدَهَت عَبْـــرَ العُصُـــور
مَنْ تُـــرَاهُم عَبَـــرُوا بُـــوغَـــازَهَـــا
فَغَـــذَا بِـــالفَتْـحِ فَخْـــراً لِلْبُحُـــور ؟
مَنْ تُـــرَاهُ جَـــاءَ صَقـــراً كَـــاسِـــراً
خَضَـــدَت شَـــوْكَتُـــهُ كُـلّ الصُّقُـــور ؟
يَـــا مَغَـــانِي المَجْـــدِ فِـي أَنْـــدَلُسٍ
وَلَيَـــالِيهَـــا كَهَـــالاَتِ البُـــدُور !
هَـــزّنِـي الشّـــوْقُ لَـــدُنْيَـــاكِ التِي
سَبَحَت فِـي مَـــرْكَبَـــاتٍ مِن عُطُـــور

لأرَى التّـــــارِيخَ فِـي أطْـــلاَلِهَـــــا
يَسْكُبُ العِبْـــرَةَ مِن خَلْـفِ السُّطُـــور
وَأرَى فِيهَـــــا قُصُـــــوراً أصْبَحَـت
بَعْـــدَ إدْبَـــارِ اللّيَـــالِي كَـــالقُبُـــور !
فَهِيَ كَـــــالخَـــرْسَـــاء فِـي أعْيُنِهَـــا
دَمْعَـــةُ الحُـــزْنِ وَمَـأسَـــاةُ المَصِيـــر !

* ● *

أيْـنَ مِـنْ عَيْنِـي نَعِيـمٌ وَافِـــــــرٌ
وَارِفُ الظِلّ نَقِـيٌ كَـــــالغَـــدِيـــر ؟
وَعشَـــايَـــا الأنْسُ فِي غَـــرْنَـــاطَـــةٍ
بَيْنَ أشْجَـــــارٍ وَأوْتَـــارٍ وَحُـــور !
وَصَبَـــايَـــا حَـــالِمَـــاتٌ نَشَـــرَت
فَـــوْقَ بُسْط الـــزّهـر أمْـــوَاجَ الشُعُـــور
وَشَـــذَا الأزْهَـــار فِي أجْـــوَائِهَـــا
عَنْبَـــرٌ يَسْبَحُ فِيهَـــا وَبَخُـــور
فِتَـنٌ يَفْقِـــــدُ فِيهَـــــا قَلْبَـــهُ
جَـامِحُ القَلْبِ وَيَخْشَـاهَـا الـوَقـور
أوْحَـشَـت مُـذْ أفَـلَـت أقْـمَـارُهَـا
وَخَلت مِـن أنْسِهَـــا تِلْكَ القُصُـــور !

لَـمْ يَعُـــدْ يُسْمَعُ فِيهَـــا وَتَـــرٌ
أو يُغَـــرّد بُلْبُـلٌ فَـــوْقَ الـــزُّهُـــور
حَـــوَّمَ البُـــومُ عَلَـى أبْـــرَاجِهَـــا
وَطَـــوَاهَـــا المَـــوْتُ مِـنْ غَيْـرِ نُشُـــور
وَرَوى التّـــارُيخُ عَنْهَـــا قِصّـــةً
سَكَنَتْ مَـأسَـــاتُهَـــا كُلّ الصُّـــدُور !
فَـكَـــأن لَـــمْ تـــغـــنَ بِالأمْـــسِ وَلَـــمْ
يَكُ فِيهَـــا لِبَنِـي العُـــرْبِ حُضُـــور !
إنْ جَلَـــوا عَنْهَـــا وَغَـــابُـــوا فَلَهم
فِي مَغَـــانِيهم شُخُـــوصٌ وَظُهُـــور !
كُـلّ شَـيْء يَتَـــــــــرَاآى لَـكَ فِـي
فَنهَـــا الـــزَّاهِي إشَـــارَاتِ مُـــرُور !
وَلِسَـــانـــاً عَـــرَبِيـــاً نَـــاطِقـــاً
وَدَمَـــاً يُـــوشِـكُ فِيهَـــا أنْ يَثُـــور !

* ● *

كَمْ شَـــدَا فِيهَـــا ابنُ زَيْـــدُونَ عَلَى
فنَنِ الحُـب فَنَـــاغَتـــهُ الطُّيُـــور
مَنَحتـــــــه حُبّهَـــــــا وَلاَّدَةٌ
صَـــافِيَ المَنْهَلِ عَـــذْبـــاً لاَ يَغُـــور

خَلّـــدتهَـــا فِي الهَـــوَى أشْعَـــارُهُ
مَثَـــلاً يَبْقَـى عَلَى مَـــرِّ الـــدّهُـــور
وَشَـــدَا زرْيَـــابُ فِـي أبْهَـــائِهَـــا
مَـــا تَغَنَّتْ بِـــهِ رَبّـــاتُ الخُـــدُور !
كَمْ أتَـــاهَـــا (يُـــوسُفٌ) فِي جُنْـــدِهِ
يَعْبُـــرُ البَحْـــرَ إلَيْهَـــا وَالجُسُـــور !
ذَبَّ عَنْهَـــــا كُلّ طَـــــاغٍ وَحَمَـىٰ
بَيْضَـــةَ الإسْـــلاَمِ كَـــاللّيْثِ الهَصُـــور
لَـمْ يَكُنْ يَكْبَـحُ عَنْ أعْـــــدَائِهَـــــا
خَيْلَـــهُ حَتَّى تُـــوَارِيهَـــا الجُحُـــور !

* ● *

شَـــدَّتِ القَلْبَ إلَـى حمـــرَائِهَـــا
وَخَـرِيـرُ المَـاء لِـــلأُسُـدِ زَئِيـر !
وَشَمِمْتُ الـــزّهْـــرَ مِـنْ زَهْـــرَائِهَـــا
فَـــارْتَشَفْتُ الـــرَّاحَ مِنْ ثَغْـــرِ العَبِيـــر
مَـــحْـــفِـــلٌ لِلْـــجُـــسْـــنِ إلاَّ أنَّـــهُ
مَأتَمٌ فِـي القَلْبِ مَـوْصُـــول السّعِيـــر
هَـــاهُنَـــا كَـــانَ رِجَـــالٌ وَدَّعُـــوا
تَـــارِكِينَ المَجْـــدَ وَالعِـــزّ الـــوَفِيـــر

أسْكَـــرَتهم نَشْـــوَةُ العِـــزّ فَمَـــا
فَـــارَقُـــوا النَّشْـــوَةَ إلاَّ بِـــالنّفِيـــر !
مَنْ يَمـت حُـــزْنـــاً عَلَى فُقْـــدَانِهَـــا
لَمْ يُمِتـــهُ غَيْـــرُ وَعْـي فِي الضَّمِيـــر
أيْـــنَ فِي الفِـــرْدَوْسِ مُـــلْـــكٌ بَـــاذِخٌ
كَـــانَ لِـــلإسْـــلاَمِ وَالعُـــرْب النّصِيـــر ؟
خَفَقَـت رَايَـــاتُـــهُ عَـــالِيَـــةً
وَارْتَـــوَىٰ مِن صَـــابِـــهِ كُلّ مُغِيـــر
كُـلّ شَـــيْء رَاحَ إلاَّ دِمَنـــــــــاً
وَقُصُـــوراً كَـــدُمَىٰ الطِّفْـل الغَـرِيـــر
تُلْهِمُ الشِّعْـــرَ وَتَـــدْعُـــو لِلْبُكَـــا
بِـــدِمِ القَلْبِ، وَبِـــالصّـــوْتِ الجَهِيـــر !
كُـــلّ شَيْء غَـــابَ ! لاَجُـــنْـــدٌ وَلاَ
مَـــوْكِبٌ يَـــزْهُـــو. وَلاَ عَـــرْش أمِيـــر !

* ● *

مَنْ رَأتْ عَيْنَـــاهُ يَـــوْمَ ارْتَحَلُـــوا
وَهُمُـــو بَيْنَ طَـــرِيـــدٍ وأسِيـــر !
وَدَّ لَـــوْ كَـــانَ أعْمَى لاَ يَـــرى
دَوْلَـــةَ الإسْـــلاَمِ فِي النّـــزع الأخِيـــر !

خَلَعُـــوا أَلْبِسَـــــةَ العِـــزِّ التِـي
أَلِفُـوهَـــا وَنَسُـــوا المَهْـد الـــوَثِيـر
وَإِذَا مَـنْ كَـــانَ فِـي الأَمْسِ بِـــــهِ
يَسْتَجِيـــرُ النَّـــاسَ يَسْعَى لِلْمُجيـــر !

* ● *

هَكَـذَا خُـــلْـــقُ اللَّيَـالِي صَفْـوُهَـا
غَيْـــرُ مَأْمُـــونٍ، وَدُولاَبٌ يَـــدُور
لَيْسَ يَبْقَـى حُـــزن مَحْـــزُون بِهَـــا
أَبَـــدَ الـــدّهْـــر، وَلاَ يَبْقَى سُـــرُور
فَسَقَـى اللَّـــــهُ رُبـىً ضمخَهَـــــا
دَمُ قَـــوْمِي، وَسَقَـى تِلْكَ الصُّخُـــور
كَمْ رِجَـــالٍ ضَـــرَّجُـــوا أَرْجَـاءهَـــا
بِـدِمَـاهُـم، وَحَمَـوا فِيهَـا الثُّغُـور !
وَتَحَـــــدّوْا عُصَبَ الشّـــرْك بِهَـــا
فِي الـــوَغَى مُنْقَضّـــةً مِثْل النُّسُـــور
مَـــا عَلَـى قَـــوْمِي بَـــاسٌ إِنْ كَبَـــا
بِهِمُ الـــدّهْـــرُ فَلِلـــدّهْـــر عثُـــور !

* ● *

يَـــا رُبُـــوعَ المَجْـــدِ فِي أَنْـــدَلُسٍ
إِنّ عُمْـــرَ المَجْـدِ فِي الـــدُّنْيَـا قَصِيـــر !
كُلَّمَـــا هَبّـتْ نُسَيْمَـــاتُ صَبَـــا
كـــدْتُ مِنْ شَـــوْقِي لِـــدُنْيَـــاكِ أَطِيـــر !